ويليام والاس

وبداية التحرر من الهيمنة البريطانية على إسكتلندا

(1270ـ1305 م)

م. م. محمد عدنان سلمان

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب/ قسم التاريخ

William Wallace and the Beginnings of Liberation from English Domination over Scotland (1270–1305 A.D)

Assist.Lect. Mohammed Adnan Salman

Al-Mustansiriyah University / College of Arts - Department of History

Mohammed.adnan@uomustansiriyah.edu.iq

المستخلص

يُعدُّ ويليام والاس (William Wallace) من أبرز الشخصيات الوطنية في تاريخ إسكتلندا أواخر القرن الثالث عشر، وقد ارتبط اسمه بالمقاومة ضد الهيمنة الإنكليزية في عهد الملك إدوارد الأول 1239) Edward I–1307م). إذ كانت ولادته في مدة شهدت اضطرابًا سياسيًّا حادًّا بعد تدخل إنكلترا في شؤون وراثة العرش الإسكتلندي.

برز دور والاس قائدًا عسكريًّا في حرب الاستقلال الإسكتلندية الأولى (1296–1298م)، إذ قاد انتفاضات شعبية ضد الحكم الإنكليزي، وحقَّق أهم انتصاراته في معركة جسر ستيرلينغ عام 1297م، التي شكَّلت نقطة تحوُّل في الصراع، وأثبتت قدرة الإسكتلنديين على مقاومة القوة العسكرية الإنكليزية. بعد هذا الانتصار عين والاس حارسًا على إسكتلندا، ممثلًا للسلطة الوطنية في مواجهة الاحتلال.

إن نشوة الانتصار لم تستمر طويلًا، إذ تمكن الإنكليز من هزيمته في معركة فالكيرك عام 1298م، استمر والاس رمزًا للمقاومة، سواء بنشاطه العسكري أم بدوره المعنوي في توحيد الروح الوطنية الإسكتلندية. أُلقي القبض عليه عام 1305م وأُعدم في لندن بتهمة الخيانة، لكن إعدامه أسهم في تخليد صورته كبطل قومي ومكافح من أجل استقلال إسكتلندا، تجاوز دوره البعد العسكري ليصبح أيقونةً تاريخيةً وثقافيةً ألهمت الأجيال اللاحقة، وأسهمت في ترسيخ مفهوم الاستقلال السياسي في الوعي القومي الإسكتلندي، ورمزًا لكل شخص مقاوم في سبيل النضال لشعبه. لتبدأ من بعده مرحلة جديدة من تاريخ إسكتلندا قادها روبرت دي بروس في عام 1328م وحرر بلده نهائيًّا من الاحتلال الإنكليزي.

كلمات مفتاحية: إسكتلندا، إنكلترا، ويليام والاس، إدوارد الأول، حرب الاستقلال الإسكتلندية، العصور الوسطى الأوربية

Abstract

William Wallace is regarded as one of the most prominent national figures in late thirteenth-century Scotland. His name is closely associated with resistance against English domination during the reign of King Edward I (1239–1307). He was born during a period marked by intense political instability following England's intervention in the Scottish succession.

Wallace emerged as a military leader during the First War of Scottish Independence (1296–1298), leading popular uprisings against English rule. He achieved his most significant victory at the Battle of Sterling Bridge in 1297, which marked a turning point in the conflict and demonstrated the Scots' ability to resist English military power. Following this victory, Wallace was appointed Guardian of Scotland, acting as a representative of national authority in opposition to the occupation.

However, this triumph was short-lived, as the English defeated him at the Battle of Falkirk in 1298. Despite this setback, Wallace remained a symbol of resistance, both through his continued military efforts and his role in fostering Scottish national unity. He was captured in 1305 and executed in London on charges of treason. Nevertheless, his execution contributed to immortalizing him as a national hero and a fighter for Scottish independence. His role extended beyond the military sphere, becoming a historical and cultural icon who inspired later generations and helped entrench the concept of political independence in Scottish national consciousness. He also came to symbolize resistance for those struggling on behalf of their people. After his death, a new phase in Scottish history began, led by Robert the Bruce, who ultimately secured Scotland's independence in 1328.

Keywords: Scotland, England, William Wallace, Edward I, First War of Scottish Independence, European Middle Ages

تمهيد

كثيرًا ما ارتبط اسم ويليام والاس William Wallace في الذاكرة الشعبية المعاصرة بصورة البطل المقاوم التي رسخها العمل السينمائي الشهير Braveheart [1]، حتى أصبح هذا العمل بالنسبة إلى أجيال لاحقة بمثابة المدخل الأول للتعرف على شخصية والاس ودوره في التاريخ الإسكتلندي. غير أن هذه الصورة السينمائية على الرغم من تأثيرها الكبير في تشكيل المخيلة العامة، فإنها لا تمثل دائمًا انعكاسًا دقيقًا للوقائع التاريخية بقدر ما تعكس إعادة صياغة درامية لسيرة شخصية تحولت عبر الزمن إلى رمز وطني. ومن هنا تنبع أهمية العودة إلى المصادر التاريخية ومحاولة قراءة حياة والاس قراءةً نقديةً تستند إلى ما توفره الروايات المعاصرة من معطيات.

إن حياة أي بطل شعبي أو قومي غالبًا ما تكتنفها العديد من القصص والأساطير، وكذلك الحال مع قصة ويليام والاس، الثائر الإسكتلندي الذي وقف في وجه النظام الإنكليزي المستبد غير المبرر للشعب الإسكتلندي، ولم يكن والاس يسعى إلى أمجاد شخصية بقدر ما كان مدفوعًا بالدفاع عن قضية وطنه، الأمر الذي جعل سيرته محاطةً بسلسلة من الروايات المتباينة التي اختلط فيها الواقع التاريخي بالخيال الشعبي. وقد أدى ذلك إلى ظهور العديد من القصص حول شخصيته، ولا سيما في كتابات بعض المؤرخين الإنكليز الذين حاولوا أحيانًا التشكيك في حقيقة وجوده أو التقليل من شأن دوره التاريخي. كما أن الروايات التي تناولت نهايته المأساوية، والتي تشير إلى أن جثمانه قُطع ورُميت أجزاؤه في مدن مختلفة داخل الحدود الإنكليزية وخارجها، أسهمت في تعزيز الطابع الأسطوري لسيرته (Fisher، 1986، الصفحات 7-9).

ومع ذلك، فإن غالبية الدراسات التاريخية لا تستطيع إنكار وجود شخصية والاس ودوره، ولا سيما أن الشاعر الأعمى هاري Blind Harry قد ذكره في قصيدته الشهيرة

1- تم إنتاجه في عام 1995 وهو يعبِّر عن حياة والاس بصورة ملحمية من إخراج وبطولة ميل جيبسون Mel Gibson وبطولته. يُنظر:

(https://www.rogerebert.com/reviews/braveheart-1995)

التي نُظمت بعد نحو قرن ونصف من وفاته، وهو ما أسهم في تثبيت صورته في الذاكرة الأدبية والتاريخية الإسكتلندية (Fisher، 1986).

وقبل الحديث عن حياة ويليام والاس المبكرة يجب علينا فهم الوضع السياسي داخل إسكتلندا، ومعرفة أسباب وحجج تدخل الإنكليز في وراثة العرش الإسكتلندي.

أولًا: مشكلة وراثة العرش الإسكتلندي

كان التاسع عشر من مارس عام 1286م من أكثر التواريخ مصيريةً في تاريخ إسكتلندا، ففي فجر ذلك اليوم المشهود سقط الملك ألكسندر الثالث Alexander III (1241–1286م) [1]، وهو يمتطي جواده من فوق الجرف وتُوفي في الحال، في عمر لم يتجاوز الخامسة والأربعين، بالقرب من كينغهورن Kinghorn المدينة التي تقع على الساحل الشرقي الإسكتلندي، عند وفاته كانت إسكتلندا دولةً مزدهرةً للغاية، تتمتع باستقرار داخلي على جميع الاصعدة (Alexander Falconer Murison, 2003, p. 8).

احتفظت إسكتلندا بعلاقات ودية مع إنكلترا خلال حكم ألكسندر، تُوفيت زوجته مارغريت Margaret (1240–1275م) أخت الملك الإنكليزي هنري الثالث Henry III (1207–1272م)، ثم تبعها ولداها ألكسندر ودافيد، وبقَيت ابنتهم مارغريت Margaret المتزوجة من ملك النرويج إيريك Eric (1280–1299م)، التي تُوفيت أيضًا عام 1283م، ولم يتبقَّ من أسرة ألكسندر سوى حفيدته مارغريت التي عُرفت باسم عذراء النرويج Maid of Norway، والتي كانت صغيرةً آنذاك لذلك انتخب النبلاء مجموعةً منهم لكي يتولوا حكم إسكتلندا ريثما تكبر مارغريت وتتهيأ للحكم أي (أشبه بالأوصياء على العرش)، وعُرفت المدة التاريخية الممتدة بين 1286–1289م باسم حراس المملكة الإسكتلندية الذين تولوا الحكم بعد وفاة ألكسندر الثالث (الحسيني، 2017، الصفحات 396–397).

وكان الحراس كلًّا من: ويليام فريزر William Fraser أسقف مدينة سانت أندروز، روبرت ويشارت Robert Wishart أسقف مدينة غلاسكو، ألكسندر كومين Alexander Comyn

1- للمزيد حول حياة ألكسندر الثالث وأعماله يُنظر: (Macquarrie, 2004, pp. 210– 217)

إيرل[1] مدينة بوكان، دنكان ماكدوف Duncan MacDuff إيرل مدينة فايف، وجون كومين John Comyn من مدينة بادنوش، وآخرهم جيمس ستيوارت James Stewart المشرف عليهم وأكبرهم سنًّا، وقد تم تعيينهم في اجتماع مجلس النبلاء في سكون (Scone) عام 1286م، المدينة التي يعلن منها بشكل دائم تتويج الملوك، وتم تكليفهم لإدارة المملكة والحفاظ على الاستقرار السياسي حتى تصل الوريثة الشرعية إلى إسكتلندا (Fisher, 1986, p. 18).

تجدر الاشارة الى ظهور مشاكل العرش بعد وفاة ألكسندر بشكل مباشر بين عائلتين بروس وباليول انتخاب، أكد روبرت دي بروس حق عائلته في الملكية، لكن جون باليول John Balliol (1249–1314م)[2] عارضه، الذي كان يدعي بطلبه للعرش إلى من خلال ابنته مارغريت زوجة ديفيد ابن ألكسندر، لم يكن من الممكن اختبار أي من الادعاءين فورًا؛ لأن ملكة ألكسندر الثالث ادعت أنها حامل، وكان هناك احتمال لوجود وريث بعد وفاته، لكنها تُوفيت أيضًا وتوجهت الأنظار إلى حراس المملكة كما ذكرنا سابقًا، وكانوا من ضمنهم متعاطفين مع أسرة بروس وباليول (Macquarrie, 2004, pp. 220– 221).

إن مشاكل وراثة العرش ليست جديدة على الإسكتلنديين، فقد ظهرت في حياة ألكسندر الثالث عند وفاة وريثه عام 1284م، إذ بدأ ملك إنكلترا إدوارد الأول بالإشارة إلى حفيدة الإسكندر "عذراء النرويج"، بمثابة تذكير للإسكندر بأن للملك وريثًا شرعيًّا، كان الإسكندر حريصًا على تذكير نبلائه بهذه الحقيقة، ففي شباط من العام نفسه، أي بعد أسبوع من وفاة ابنه، استدعى النبلاء إلى قصره للموافقة على قبول الطفلة مارغريت وريثًا له، لم يكن لدى روبرت دي بروس الأكبر Robert the Bruce حاكم إقطاعية أناندیل Annandale رفض؛ لأنه ادعى لاحقًا أن الإسكندر الثاني قد اعترف به عندما لم يكن لديه

1- الإيرل: Earl لقب نبيل في النظام الإقطاعي خلال العصور الوسطى المبكرة، وفي الأصل وصل إلى الجزر الإنكليزية من خلال القبائل الدنماركية ويعادل تقريبًا لقب الكونت في العصور اللاحقة. للمزيد حول اللقب يُنظر: (Crouch, 2005, p. 46)

2- هو ملك إسكتلندا الذي حكم بين عامي 1292 و1296م، يُعدُّ شخصيةً محوريةً في فترة أزمة الوراثة الإسكتلندية التي أعقبت وفاة مارغريت، تم اختياره ملكًا بعد تدخل إدوارد الأول ملك إنكلترا كحاكم للوساطة، مما حد من استقلالية عرش إسكتلندا وجعله يُعرف لاحقًا بـ "ملك الظل لإدوارد الأول". مثَّل حكمه مرحلةً انتقاليةً بين عهد ألكسندر الثالث وبداية حروب الاستقلال الإسكتلندية، التي قادها لاحقًا ويليام والاس. للمزيد يُنظر: (G.W.S, 2003, pp. 354– 360)

أطفال كوريث بعدِّه أقرب سليل له، لا شك أن آل بروس كانوا دائمًا مقتنعين بصحة ادعائهم (Macquarrie, 2004, p. 220). وبالتالي يمكن القول بإن مشكلة إسكتلندا، بعد وفاة عذراء النرويج، عدم وجود وريث للعرش، بل كثرة الورثة.

تجددت الخلافات سريعًا بين ال بروس وباليول، بين كبار الأسرة تحديدًا روبرت دي بروس وجون باليول، روبرت ادعى أن لديه وصيةً للعرش من الملك ألكسندر الثاني، بالإضافة إلى عدد من النبلاء بين مؤيد لروبرت وجون، وفي تلك الأثناء وصلت مشاكل عرش إسكتلندا إلى مسامع إدوارد الأول من خلال أسقف سانت أنجورز ويليام فريزر، الذي كان طامعًا بالعرش، لكن وفاة حفيدته عذراء النرويج (Alexander Falconer Murison, 2003, p. 9) حالت دون تنفيذ اتفاقية سالزبروي Treaty of Salisbury [1].

تطورت الأحداث بشكل سريع، وأصبح مجلس الأوصياء له المسؤولية عن السياسية الإسكتلندية، فقاموا بحجز جون باليول، ووضع أعضاؤه هدفين أساسين هما: الاستعداد لمعركة كبرى أمام إنكلترا أولًا، وثانيًا الحصول على دعم خارجي من خلال إرسال بعثة إلى باريس، وقامت اللجنة بإلغاء حق اللجوء إلى المحاكم الإنكليزية، وطردوا الموظفين الإنكليز والنبلاء الموالين لإدوارد ومن ضمنهم روبرت دي بروس، وعلى ذلك الأساس أصبحت العلاقات حرجةً بين الإنكليز والإسكتلنديين (القادر، 2016، صفحة 215).

في العاشر من تشرين الثاني عام 1291م اجتمع إدوارد الأول مع كبار رجال الإنكليز والإسكتلنديين في كنيسة نورهامNorham ، وأعلن القاضي برابانزون Brabanzon أن إدوارد سوف يقر العدل بين المرشحين لتولي العرش، تفاجأ الإسكتلنديون بذلك الأمر، إذ ظن بعض النبلاء أن هذا الفعل سوف يضع إسكتلندا تحت تصرف إدوارد لاحقًا، وبعد مشاورات ونقاشات كثيرة تم اختيار جون باليول ملكًا على إسكتلندا، وتم تتويجه في سكون عام 1292م أواخر تشرين الثاني، وأعلن خضوعه لإدوارد في كل قرارته، وقدم فروض الولاء الإقطاعية في القلعة نفسها (Macarthur, 1874, pp. 34– 35).

1- وهي اتفاقية عُقدت في السادس من تشرين الثاني عام 1289م اتفق بموجبها أطراف النزاع حول العرش الإسكتلندي على إرسال الملكة مارغريت إلى إنكلترا حرةً غير مقيدة بأي عقد من الزواج، لتبقى تحت رعاية الملك إدوارد الأول إلى أن تُتاح لها في إسكتلندا إقامة آمنة، كما تعهد النبلاء الإسكتلنديون، بموجبها، بأن لا يقوموا بأي ترتيب لزواج الملكة القاصر من دون موافقة إدوارد 162. يُنظر: (Brown, 2004, p. 162)

لم تستمر العلاقات الودية الإنكليزية – الإسكتلندية لوقت طويل، إذ سرعان ما تجددت الخلافات عام 1295م إثر تجدد الحرب بين فرنسا وإنكلترا خلال عهد الملك الفرنسي فيليب الرابع Philippe IV (1258–1314م)[1] على إثر احتلاله لدوقية جاسكوني Gascon، طلب خلالها إدوارد من حلفائه الاستعداد للحرب، فلم يلبِّ جون باليول نداءه، وقرر التحالف مع فرنسا، لذا قرر إدوارد تجهيز حملة عسكرية كبرى إلى إسكتلندا بلغ تعدداها تقريبًا أربعة آلاف فارس وثلاثين ألفًا من المشاة (الحسيني، 2017، صفحة 401). ويمكن القول إن سبب سرعة تحول جون باليول ونقضه لعهده مع إدوارد بسبب سياسة الأخير المجحفة تجاه الإسكتلنديين.

حقق إدوارد نصرًا ساحقًا داخل الأراضي الإسكتلندية، واستطاع دحر المقاومة نظرًا للفوارق الكبيرة في العدة والعدد وخلال مدة لم تتعدَّ الخمسة عشر شهرًا، سقطت كبرى المدن الإسكتلندية ووصل إلى إدنبرة التي سقطت بعد حصار دام ثمانية أيام، واستسلم جون باليول، وفي قلعة بريكن Brechin قام بتسليم أسقف دورهام شعار تنازله عن العرش، وتم إرساله إلى لندن لكي يقضي عقوبة السجن فيها، وأعلن إدوارد رغبته في التعايش السلمي مع الإسكتلنديين، واتخذ قرارًا بعدم تجدد الاعتداء على المواطنين الإسكتلنديين (Brown, 2004, p. 178). يتبين لنا من خلال ما ذُكر أن سياسة إدوارد الأول تجاه الإسكتلنديين اتسمت بالعداء الدائم، وحاول إذلالهم بشتى الطرق حتى حينما تدخله في منح جون باليول الحكم على إسكتلندا كان شكليًّا؛ لأنه تدخل في كل مفاصل الحكم، وطلب من جون أن يكون الإسكتلنديون في خدمته وقتما احتاجهم في حروبه،

1- فيليب الرابع: الملقّب بـ (الجميل) من أبرز ملوك أسرة ال كابيه، إذ تميّز عهده بمحاولة ترسيخ سلطة الدولة الملكية وتوسيع نفوذها في مواجهة البابوية والملكية الإنكليزية. وقد أتّسمت سياسته الخارجية بالسعي إلى تطويق إنكلترا عبر دعم خصومها، ولا سيما في اسكتلندا. ومع تصاعد الصراع الانكليزي – الاسكتلندي ونصر إدوارد الأول (1296م)، قدّم فيليب الرابع دعمًا غير مباشر للاسكتلنديين في إطار صراعه الأوسع مع إنكلترا، فتقاطع ذلك مع نشوء ما عُرف لاحقًا بـ التحالف الفرنسي–الاسكتلندي (Auld Alliance) سنة 1295م، الذي شكّل أساسًا للتعاون العسكري والسياسي بين الطرفين ضد إنكلترا. وبذلك يمكن القول إن دور فيليب الرابع تمثّل في تعزيز الجبهة المعادية لإنكلترا، الأمر الذي منح المقاومة الاسكتلندية سندًا دبلوماسيًا مهمًا، حتى وإن لم يتدخل مباشرة في مسألة الخلافة ذاتها. للمزيد حول علاقة فيليب بالحروب الإنكليزية – الاسكتلندية ينظر: (Prestwich, 1988, pp. 360– 365)

وعلى أساس تلك التصرفات رجع التوتر للعلاقات بين الجانبين، وهذا ما أدى إلى إشعال نار الثورة في وجه الإنكليز، وظهور شخصيات وطنية مستعدة للثورة في وجه الظلم ومنهم ويليام والاس.

ثانيًا: حياة ويليام والاس المبكرة

لاتُعرف سنة ولادة ويليام والاس على وجه الدقة، إذ تتباين تقديرات المؤرخين بين ستينيات وسبعينيات القرن الثالث عشر، غير أن عددًا من الدراسات الحديثة يرجّح أنها كانت نحو سنة 1270م (britannica) . كما يظل نسبه العائلي موضع خلاف؛ فبينما ربطت الروايات التقليدية المتأخرة نسبه بالسير مالكولم والاس في منطقة إلدِرسلي (Elderslie) برينفروشاير(Brenfrewshire)، تشير بعض الأدلة الوثائقية، ولا سيما ختمه على رسالته إلى مدينتي لوبيك وهامبورغ سنة 1297م، إلى أنه كان ابن آلان (Alan) والاس، وهو ما دفع بعض الباحثين إلى ترجيح صلته بإيلرسلي (Ellerslie) في أيرشاير بدلًا من رينفروشاير (Mackay, 1995, pp. 12– 13).

أما فيما يتعلق بمكان ميلاده، فقد ساد في التقليد التاريخي الرأي القائل بأنه وُلد في إلدِرسلي برينفروشاير، وهو ما عززته الذاكرة المحلية في القرن التاسع عشر من خلال إقامة التماثيل والشواهد التذكارية التي نسبت إليه هذا الموضع، غير أن هذا الرأي لا يحظى بإجماع قاطع في الدراسات الحديثة، التي تميل إلى التعامل معه بوصفه احتمالًا مرجّحًا لا حقيقة نهائية (Fisher، 1986، الصفحات 18– 20).

لذا ظلت شخصية والاس لمدة طويلة محل جدل بشأن وجوده من عدمه، ويبدو لنا أن الروايات الرسمية الإنكليزية كانت تتعمد إخفاء هويته لأسباب سياسة واضحة سنتطرق إليها لاحقًا. لكن من المؤكد لنا أن شخصية والاس حقيقية، وعلى هذا الأساس يُستمد جزء كبير من تاريخ ويليام والاس، بشكل مباشر أو غير مباشر، من القصيدة الملحمية التي ألفها هاري الأعمى في القرن الخامس عشر الميلادي، بعد أكثر من قرن ونصف من وفاة والاس عام 1305م، زعم وأشار مرارًا إلى مصدره أن قصيدته تستند إلى مخطوطة نثرية جمعها جون بلير (John Blair) باللاتينية ويعتقد بأنه قدمها الى أحد رجال الدين

المعروفين في حينها، لكنها لم تعد موجودةً على ما يبدو، كان بلير صديقًا لوالاس منذ أيام طفولتهما، ثم أصبح قسيسه، ومن المؤكد أن هذه الرواية تناقلت من خلال الأحاديث الشفوية في ذلك العصر، وزودت بلا شك بالعديد من الحكايات التي تم تداولها خلال عهد والاس (Mackay، 1995، صفحة 13).

يذكر لنا هاري عن شباب والاس " **نشأ والاس في شبابه طويل القامة قوي البنية، يفوق أقرانه في الجرأة والمهارة. وقد عُرف منذ صغره بروح العدل ورفضه للظلم، فلم يكن يقبل أن يرى أحدًا من قومه يتعرض للإهانة دون أن يدافع عنه. وكان سريع الغضب إذا ما رأى جند الإنكليز يسيئون معاملة أهل البلاد، ولذلك بدأ منذ شبابه يميل إلى مقاومة سلطتهم**" (Harry, 1968, pp. 8-9).

يؤكد لنا الباحث جيمس مكاي حقيقة شخصية والاس ويذكر أنه يتمتع بقدرات عقلية هائلة، فنشأ بتربية تقليدية كفتى من طبقته وعصره، ولأنه الابن الأصغر لأحد اللوردات الصغار، تلقى أساسيات تعليمه في المنزل، وكذلك تعليمًا دينيًّا رسميًّا من رهبان دير بيزلي، إذ كان يُمثل أفضل مركز تعليمي في جنوب غرب إسكتلندا في ذلك الوقت (Mackay، 1995، الصفحات 27-28).

كانت حياته المبكرة هادئةً مثل باقي الأسر الزراعية المسالمة، ومع بلوغه الرابعة عشرة من عمره ونتيجة سياسات الإنكليز تعلم استخدام السيف، ومع تطور الأوضاع ونتيجة السياسات المذلة للإنكليز تجاه الإسكتلنديين ساد التوتر والشد العصبي جميع المدن، ومجرد حديث بسيط بين جندي إنكليزي ومواطن إسكتلندي قد يتحول إلى نزاع، وذلك ما حدث مع ويليام في أول صدام بينه وبين الإنكليز، إذ كان في طريق عودته إلى منزله يحمل في سلته بعض السمك، اعترضه ثلاثة جنود إنكليزيين طلبوا منه تسليم ما يحمل، لكنه رفض فأجبروه على تركها، مما دفعه لإخراج سيفه وقتل الجنود، وصل الخبر بسرعة كبيرة إلى الحاكم الإنكليزي الذي غضب بشدة وأرسل مجموعة جنود لجلبه حيًّا أو ميتًا، ولم يجدوه لأن أصدقاء ويليام استطاعوا إيصاله إلى الجبال ونصحوا بعدم الرجوع لكي ينسى الحاكم الحادثة (H.E.Marshall, 1906, p. 111).

وفي رواية أخرى يكتب الباحث بيتر هيوم بروان P.H.Brown أن الجنود سخروا من لون ملابسه الذي كان يرتديها، وقام أحد الجنود بسحب سيف والاس، حينها قام والاس

بقتله ورجع بعدها إلى بيته مسرعًا (Brown P. H., 1908, pp. 135– 136). كما بينت رواية ثالثة أن جنودًا اعترضوا طريق ماريون Marion زوجته، فقطع والاس أيدي الجندي الذي لمسها، عندها غضب حاكم بلدة لانارك Lanark دي هيسيلرج William Heselrigh وأمر بقتله، وحينما توجه إلى منزله وجد ماريون وقام بقتلها (Ross, 2001, pp. 52–53).

الحدث الذي أعلن شهرة والاس هو قتل دي هيسيلرج الذي قتل زوجته عام 1297م، بعدما قاد والاس مجموعةً من رجال الغابات الغاضبين من الحكم الإنكليزي ونجح في مهمته الأولى (King, 2005, p. 57)، بعد الحادثة انضم العديد من الرجال إليه وبدأ بعض النبلاء بالانضمام إليه وأولهم أندرو موراي Andrew Moray) 1270–1297 أو 1298م)، ووليام دوكلاس (William Douglas 1243–1298م) الذي فقد أراضيه في لاناركشاير، فضلًا عن بعض الرجال الدين والنبلاء المغمورين الذين وجدوا فيه الأمل لتوحيد الإسكتلنديين وتخلصيهم من الإنكليز (King, 2005, p. 58). ومن هنا دخلت شخصيته قصة الكفاح والصراع الإسكتلندي- البريطاني.

ثالثًا: معركة جسر ستيرلنغ وبداية التحرر من الإنكليز 1297م

توجهت أنظار الثوار الإسكتلنديين إلى جسر ستيرلنغ Sterling الذي ستحدث فيه أهم معركة في حرب الاستقلال الإسكتلندية، بوصفها أول انتصار ميداني كبير للقوى الإسكتلندية بعد إخضاع البلاد من قِبل إدوارد عام 1296م.

مع مطلع 1297م عام توسعت رقعة المقاومة عبر مسارين متوازيين: حركة الجنوب بقيادة والاس ودوكلاس، وتمرد الشمال بقيادة موراي، إذ مثل التقاؤهما قبيل المعركة لحظة توحيد عملي لقيادة الحركة الوطنية رغم استمرار التباينات الاجتماعية والسياسية بين نخب إسكتلندا (Brown P. H., 1908, p. 138). وقبيل الخوض في تفاصيل المعركة يتبادر لنا السؤال كيف أمكن لقوة أقل عددًا وتجهيزًا أن تهزم جيشًا إنكليزيًّا يقوده نبلاء محترفون وخيالة مدرعة؟ أو هل كان الجيش الإسكتلندي أكثر قوةً وضراوةً من الإنكليز؟ وماهي الخطة المناسبة لحسم مثل هذه المعارك؟

عندما وصلت الأخبار إلى إدوارد الأول حاول جلب بعض النبلاء الإسكتلنديين إليه أمثال عائلة بروس، الذين صادر أراضيهم سابقًا، ووجد ضالته في الأمير الشاب روبرت دي بروس الابن(-1274 1329م)، وطلب إدوارد إليه مقابل إعادة الأراضي له وزيادتها مهاجمة قلعة ويليام دوكلاس في أناندیل جنوب إسكتلندا موطن آل بروس، العرض الذي رفضه بروس، وشعر بضرورة نصر الثوار والتحرر من سيطرة إدوارد (القادر، 2016، صفحة 228).

أثار موقف بروس الأخير شعورًا وطنيًّا لدى العديد من النبلاء وفي مقدمتهم روبرت ويشارت أسقف مدينة غلاسكو وأحد حراس المملكة، الذي كان لسنوات عديدة يؤمن بأن الاحتجاج السلمي الوسيلة الأفضل لمقاومة الظلم الإنكليزي، لكنه أعلن انضمامه وتأييده للثوار الأحرار، وجلب معه جيمس ستيوارت الموظف المالي الأعلى لإسكتلندا بالانضمام معه للثورة (Brown P. H., 1908, pp. 138-139). وعلى أساس ذلك التجمع يمكن القول إن الحركة الوطنية قد شملت بعض النبلاء ورجال الدين مثل بروس وويشارت وكذلك العامة أمثال والاس.

وعلى الجانب الآخر بدأ الإنكليز يجمعون ما يقارب أربعين ألف بقيادة جون دي وارن John D. Warren و هيو دي كريسنكهام Hugh de Cressinkham ، وهو عدد موازٍ للجيش الإسكتلندي، ومن دون إنذار سابق دخل الجيش الإنكليزي مدينة أناندیل، مما سبب ذعرًا لدى معظم الأمراء الإسكتلنديين، وتمت محاصرتهم في مقاطعة إيرفين، فلم يكن لهم خيار سوى الاستسلام وتجديد القسم لإدوارد وفي طليعتهم جيمس ستيورات، روبرت بروس، روبرت ويشارت، الحدث الذي أصبح بعده والاس وموراي ودوكلاس وحدهم في مواجهة الجيش الإنكليزي[1].

لم يترك والاس فكرة الحرية ومواجهة الإنكليز رغم النقص العددي في صفوفه، وتحرك نحو سترلينغ ومعه ستة آلاف من المشاة وأربعمئة فارس خيال والعدد نفسه بالنسبة إلى النشابة، وفي الواقع كان موقع المعركة صعبًا جغرافيًّا؛ بسبب وجود المترفعات والنهر، وكان طريق العبور الوحيد بين الضفتين الجسر النقطة التي استغلها والاس

1- للمزيد عن تحركات الجيشين يُنظر: (Brown M. , 2004, pp. 191- 197)

ورفاقه، فالجسر الخشبي الضيق فوق نهر فورث كان نقطة عبور حاكمة، النقطة التي استغلها الإسكتلنديون، إذ كانت ضيقةً بشكل كبير ولا يستطيع العبور منها سوى فارسين أو ثلاثة جنود من المشاة (Brown M. , 2004, p. 196).

تشير المصادر المعاصرة إلى أن الإنكليز بدأوا العبور تباعًا في العاشر من أيلول من عام 1297م، من الضفة الشمالية للنهر بقيادة كريسنكهام، انتظر والاس عبورهم عندها شن الهجوم بشكل كتل مشاة كثيفة اتخذوا شكلًا دائريًّا مع استخدام رماح طويلة، فعزلوا القوة العابرة عن بقية الجيش بعد مقتل قائدهم كريسنكهام، وقطعوا عنهم خط الرجعة نحو الجسر، أثار تقدم الجيش الإسكتلندي السريع ذهول جون دي وارن لذا قرار الانسحاب جنوبًا، عندها أعلن والاس انتصاره الكبير في المعركة، وكان ذلك الفوز الأول للثائرين، وتركت آثار الانتصار شعورًا وطنيًّا وقوميًّا كبيرًا لدى جميع فئات المجتمع الإسكتلندي، أُصيب موراي بجراح قاتلة تُوفي على إثرها في تشرين الثاني 1297م، مما حرم الحركة من قائد ذي خبرة إدارية وعسكرية مبكرة (Brown M. , 2004, p. 197). دلت المعركة على أن الشعور الوطني الموحد يمكنه القضاء على أكبر قوة منظمة عسكريًّا، وكسرت غطرسة الإنكليز الذين كانوا يظنون أنهم سوف يحققون النصر بسهولة أمام جيش معظمه من الفلاحين والمشاة، كما كشفت المعركة محدودية فعالية الفرسان الثقيلين في فضاء ضيق يقيد المناورة.

أفضى الانتصار إلى تعيين والاس واحدًا من "حراس إسكتلندا"، وبحضور كبار النبلاء في كنيسة الغابة في مقاطعة سيلكيرك Selkirkshire وأعاد الثقة بإمكان مقاومة التفوق العددي عبر التحكم بالممرات والاختناقات الميدانية، وسوف يقاتل الآن رسميًّا باسم الملك المنفي جون باليول (Alexander Falconer Murison, 2003, p. 138). أن فرحة الانتصار لم يغيّر ميزان القوى بشكل دائم، إذ أعاد الإنجليز تنظيم قواتهم، مما قاد إلى مواجهة حاسمة في فالكيرك.

معركة فالكيرك 1298م وانحسار المقاومة الوطنية

لم يتخلَّ والاس عن فكرة تحرير إسكتلندا، ولم تخرج من ذهنه رغم انتصاره في ستيرلنغ. فأوصل رسائل إلى المدن الألمانية الكبرى ذات التجارة الرائدة في ذلك الوقت

مثل لوبيك Lubeck وهامبورغ Hamburg، جاء فيها: **"إن مملكة إسكتلندا قد استعادها الإسكتلنديون بالحرب، ولذلك فإن موانئ المملكة مفتوحة لتجاركم ليأتوا إليها ببضائعهم بأمان"** (Stones, 1965, p. 46)، وعين والاس ويليام لامبرتون William Lamberton رئيسًا لأساقفة إسكتلندا رغم معارضة إدوارد الأول وبعض النبلاء، وكذلك أرسل رسائل إلى البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (1235-1303م) للتوسط في إنهاء حبس الملك جون باليول (Fisher, 1986, p. 69)، وقرر التحرك باتجاه إنكلترا رغم معارضة عدد من النبلاء. واستطاع والاس تحرير العديد من المدن من سيطرة الإنكليز، وقتل عددًا كبيرًا من الضباط ونهب مدنًا كبرى في الشمال الإنكليزي (Brown M. , 2004, p. 182).

في تلك الأثناء كان إدوارد في الفلاندرز(الممتلكات الإنكليزية في فرنسا) ووردته أخبار إبادة الجيش الشمالي أمام والاس، فقرر العودة مباشرةً ووقّع هدنةً مع الفرنسيين ووصل إلى إنكلترا في آذار من سنة 1298م، وأعلن بسرعة تشكيل جيش جرار لإعادة إسكتلندا تحت حكمه مجددًا، ووجه نداءً إلى كل النبلاء الإنكليز والويلزيين والإيرلنديين، تجمع الجيش في حصن روكسبرغ، ووصل عددهم إلى نحو 24,400 ألف مقاتل في مختلف الصفوف، قسم الجيش على أربع فرق، كان القائد هنري دي لاسي Henry de Lacy في طليعة الجيش، والفرقة الثانية بقيادة أسقف مدينة دورهام أنتوني بيك Anthony Beck ، وترأس الملك إدوارد قيادة الفرقة الثالثة، وكانت الأخيرة تحت قيادة جون وارن الذي سبق وواجه الإسكتلنديين في معركة جسر سترلينغ، بدأ الجيش بالتقدم في الخامس والعشرين من حزيران 1298م (G.W.S, 2003, pp. 89-90).

وفي خطوة ذكية من إدوارد أرسل رسائل إلى نبلاء إسكتلندا يخبرهم بزيادة أراضيهم وممتلكاتهم مقابل تخليهم عن والاس فوافق العديد منهم (Brown M. , 2004, pp. 183 - 184)؛ لأن أكثرهم ببساطة يهتمون بمصلحتهم الشخصية على حساب القضية العامة، فضلًا عن حقدهم الدائم لوالاس؛ كونه من طبقة متدنية، وأصبح بنظر العامة شخصيةً بارزةً فوافقوا على الفور، ولم يبقَ معه في المعركة سوى جيمس ستيوارت وجون كومين (G.W.S, 2003, pp. 90-91).

كان جيش والاس أقل عددًا وعدةً، أكثرهم من المشاة المنظمين في تشكيلات دفاعية تُعرف باسم الشيلترون (Schiltron)، وهي دوائر كثيفة من الرماح الطويلة مربوطة

بعضها ببعض بواسطة الحبال مُصممة لصدِّ هجمات الفرسان، اختار والاس موقعًا قرب بلدة فالكيرك، حيث تكون الأرض منبسطةً تتخللها مستنقعات صغيرة، إذ كان يأمل بخطته إعاقة حركة الفرسان الإنكليز وإجبارهم على الاصطدام بجدار الرماح الإسكتلندية (Nicolle, 2002, pp. 36– 37). يظهر من خلال التكتيك أعلاه أن والاس أدرك مدى حجم الجيش الإنكليزي وقوته، واختار أسلوبًا دفاعيًّا بحتًا على أمل انكسار الفرسان الإنكليز أمام دفاعه وبعدها يبدأ بالهجوم المرتد.

وفي 22 تموز1298م، التقى الجيشان، وبدأ الاشتباك بمحاولة الفرسان الإنكليز اختراق الشيلترونات، ورغم أن بعض الهجمات تعثَّرت أمام الرماح الإسكتلندية، فإن الانضباط والتنظيم كانا أقل إحكامًا مما كانا عليه في ستيرلنغ (Nicolle, 2002, pp. 37– 38). أدرك إدوارد الأول أن المواجهة المباشرة مكلفة، فأمر رماة القوس الطويل بإمطار الشيلترونات بالسهام. وهنا ظهر التفوق التكتيكي الإنكليزي: فالتشكيلات الإسكتلندية وإن كانت فعالةً ضد الفرسان، فإنها كانت ثابتةً ومكشوفةً أمام نيران كثيفة من الأسهم، أدى ذلك إلى تفكك الصفوف تدريجيًّا وسقوط أعداد كبيرة من المشاة (Nicolle, 2002, pp. 38– 39).

عندما ضعفت الدوائر الدفاعية شنَّ الفرسان هجومًا جديدًا حاسمًا أدى إلى انهيار المقاومة، وتشير بعض المصادر إلى أن سلاح الفرسان الإسكتلندي انسحب في مرحلة مبكرة، وتقدم المشاة لكي ينهوا القتال، ولم يكن هناك خيار آخر أمام والاس سوى الهروب للغابة مع باقي جيشه (Nicolle, 2002, p. 39).

كانت النتائج كبيرة على الإسكتلنديين فتكبدوا خسائر فادحةً، قدم والاس استقالته من منصب "حارس المملكة" بعد المعركة، وتنحَّى عن القيادة السياسية رغم استمراره في المقاومة (Brown M., 2004, p. 189). وعُززت الهيمنة الإنكليزية مؤقتًا، إذ استعاد إدوارد السيطرة على معظم الحصون والمدن المهمة، لكن المقاومة الإسكتلندية لم تنتهِ.

لم تُنهِ فالكيرك حركة الاستقلال، لكنها أضعفت موقع والاس، وفتحت الباب أمام صعود قيادات أرستقراطية مثل روبرت بروس، كما أبرزت أهمية القيادة العسكرية المحترفة في مواجهة جيوش ملكية منظمة، وعدَّت المعركة نقطة تحول في حرب الاستقلال الإسكتلندية الأولى، فقد كشفت حدود التكتيك الدفاعي الإسكتلندي، وأظهرت التفوق التنظيمي والعسكري للجيش الإنكليزي خلال تلك المرحلة، ومع ذلك فإن الهزيمة لم تكن

نهاية الكفاح، بل أدت إلى إعادة تشكيل قيادات جديدة ضمنت استمرار صراع طويل انتهى لاحقًا بترسيخ الاستقلال الإسكتلندي في عهد روبرت بروس.

السنوات الأخيرة في حياة ويليام والاس

بعد الهزيمة في فالكيرك أصبح موقف والاس السياسي أكثر ضعفًا داخل النخبة الإسكتلندية، فقد كان يشغل منصب حارس إسكتلندا باسم الملك الأسير جون باليول، لكن الهزيمة أدت إلى إعادة ترتيب القيادة السياسية للمقاومة (Fisher, 1986, p. 87). وبحلول أواخر عام 1298 تخلى والاس عن هذا المنصب، ليحل محله كل من روبرت بروس وجون كومين، وهو ما يعكس محاولة النبلاء الإسكتلنديين إعادة تنظيم القيادة بعد الهزيمة العسكرية (Barrow, 2005, p. 136).

على الرغم من فقدانه للقيادة الرسمية، فإنه استمر في مقاومة القوات الإنكليزية، واعتمد على تكتيكات حرب العصابات، إذ قاد مجموعات صغيرة من المقاتلين لشن غارات على الحاميات الإنكليزية وخطوط الإمداد (Brown M. , 2004, p. 202). وأسهمت تلك العمليات في استمرار الاضطرابات داخل إسكتلندا، الأمر الذي جعل السلطات الإنكليزية تعدُّ والاس أحد أخطر قادة المقاومة في تلك المرحلة (Nicolle, 2002, pp. 36-37).

بعد ضعف موقفه السياسي داخل إسكتلندا قرر والاس السفر إلى فرنسا في نهاية القرن الثالث عشر تحديدًا عام 1299م، إذ وصل إلى بلاط الملك فيليب الرابع، وكان الهدف من هذه الرحلة الحصول على دعم سياسي أو عسكري للقضية الإسكتلندية، ومحاولة فك أسر الملك المسجون جون باليول (Prestwich, Edward I, 1997, p. 420). كما أنه حاول الاتصال بالبابوية، إذ كانت الكنيسة الكاثوليكية تمتلك نفوذًا كبيرًا في النزاعات الأوروبية في تلك المدة (Magnusson, 2000, p. 126). غير أن تلك الجهود لم تؤدِّ إلى تدخل عسكري مباشر من فرنسا؛ كونها ملتزمةً بهدنة مع إدوارد.

وللعودة إلى الأوضاع الداخلية في تلك المدة سبق أن ذكرنا أن انسحاب والاس أسهم في بروز أسماء روبرت بروس وجون كومين. إذ تصدروا المشهد السياسي، وأصبحوا الأكثر حذوًا لعرش إسكتلندا، وحدا قوتهما مع نبلاء آخرين في محاولة الهجوم على قلعة روكسبيرك لكنها لم تنجح، وفي آب 1299م نشبت خلافات حادة بينهم انتهت بإضافة

وصي ثالث على العرش، وهو أسقف سانت أندروز وليم لامبرتون (Magnusson, 2000, pp. 126– 127)، استعدوا للهجوم على القلاع الإنكليزية، ونجحوا في السيطرة على كارلافيروك Caerlaverock، وصلت الأخبار إلى إدوارد الأول الذي كان منشغلًا بتسوية بعض الخلافات داخل بلاطه، وبين عامي 1300 و1304م شن إدوارد سلسلةً من الحملات العسكرية التي أعادت السيطرة الإنكليزية على معظم الأراضي الإسكتلندية، وقد أدى ذلك إلى استسلام عدد من النبلاء الإسكتلنديين ومن ضمنهم بروس وقبولهم الحكم الإنكليزي (Prestwich, Edward I, 1997, p. 421).

بقي والاس وحيدًا في فرنسا رافضًا لحكم إدوارد على إسكتلندا، ولم يهتم للتهديدات والكمائن التي نُصبت له لكي تغير مواقفه، ومع بداية عام 1303م عاد من فرنسا (Prestwich, Edward I, 1997, p. 422). حقق الإسكتلنديون بقيادة جون كومين في الرابع والعشرين من شباط عام 1303م نصرًا على جيش إنكليزي قوامه عشرين ألف مقاتل بقيادة السير جون دي سيكريف، وسرعان ما سيطروا على الحصون كافة في الجنوب، مما اضطر إدوارد إلى تجهيز حملة كبرى لغزو إسكتلندا مجددًا (القادر، 2016، صفحة 250).

انطلقت الحملة من مدينة نيوكاسل في الخامس من أيار 1303م، وأُلفت القوى الإنكليزية من عشرة آلاف جندي من مختلف الصنوف، ولبى نداء إدوارد العديد من الإسكتلنديين الذين اقسموا الولاء له مثل روبرت بروس بحدود تشرين الأول من العام نفسه، سيطر إدوارد على معظم المدن الإسكتلندية، وتوقف بسبب قدوم الشتاء، عندها تدخل الملك الفرنسي من أجل إقامة السلام وقدم للحركة الوطنية العديد من الضمانات التي تحد من تدخل الجيش الإنكليزي مرةً أخرى، وفي شباط من عام 1304م استسلم العديد من النبلاء وفق شروط الصلح التي وضعها إدوارد والملك الفرنسي فيليب الرابع (Prestwich, Edward I, 1997, pp. 500– 501). وبقي والاس فقط الذي لم يرضخ إلى إرادة إدوارد، واستمر بمهاجمة الإنكليز، وكان مقره غابة إيترك Ettrick، وعدَّه الملك خارجًا عن القانون بالإضافة إلى سيمون فريزر، واستمرت بعض الأموال تتدفق إلى والاس عبر فرنسا من خلال الأحرار الإسكتلنديين المنفيين فيها (Brown M. , 2004, p. 206).

استمرت محاولات إدوارد للقبض على والاس، ووضع مبلغًا ماليًّا كبيرًا للحصول عليه حيًّا أم ميتًا، وفي عام 1305م تمكن الإنكليز من القبض على والاس بالقرب من غلاسكو، وتشير المصادر إلى أن عملية القبض عليه تمت بمساعدة الفارس الإسكتلندي جون دي مينتيث (John Menteith) الذي كان مواليًا للإنكليز (Barrow, 2005, p. 148). ونُقل والاس إلى لندن ليُحاكم أمام المحكمة الملكية الإنكليزية.

قبل أن تتم محاكمته قرر إدوارد إذلال والاس فقرر ربطه إلى حصان في رحلته من كارلايل إلى لندن (britannica). وعُرض أسيرًا امام المارة وُقدم على أنه المتمرد العنيف الذي كان يقتل الإنكليز. وبالنظر إلى محاكمته يجب علينا الاطلاع على السجلات الملكية الإنكليزية التي تُعدُّ من أهم المصادر التي وثقت محاكمته، ففي 23 آب 1305م قُدم للمحاكمة بتهمة الخيانة والتمرد المسلح ضد الملك إدوارد الأول ((ed).، 1913, 149 –148 .pp).

تذكر سجلات الحكومة الإنكليزية أن والاس رد على التهمة بالقول إنه لم يكن قط تابعًا لملك إنكلترا، ومن ثم لا يمكن عدَّه خائنًا له ((149 –148 .pp ,1913 ،.(ed)).

ورغم ذلك صدر الحكم بإعدامه وفق العقوبة المطبقة في قضايا الخيانة الكبرى، وهي الشنق والسحب والتقطيع، وبعد تنفيذ الحكم قُطعت رأسه وعُرضت على جسر لندن، كما أُرسلت أجزاء من جسده إلى عدة مدن إسكتلندية ((149 –148 .pp ,1913 ،.(ed))؛ لكي يكون تحذيرًا لكل من يعارض سلطة إدوارد.

أما رواية الشاعر الإسكتلندي هنري الأعمى في ملحمته عن والاس، فقدمت لنا وصفًا بطوليًّا للمحاكمة من خلال قصيدة طويلة، صورته بطلًا قوميًّا تحدى المحكمة الإنكليزية، ورفض الاعتراف بسلطة الملك الإنكليزي رغم تعذيبه وإذلاله (Harry, 1968, p. 89). وعلى الرغم من أن هذه الرواية كُتبت بعد الأحداث بقرنين تقريبًا، فإنها لعبت دورًا كبيرًا في ترسيخ صورة والاس في الذاكرة القومية والوطنية الإسكتلندية، ومن المؤكد أن فيها بعض المبالغات.

الخاتمة

يتضح لنا من خلال البحث:

إن المشكلة الإسكتلندية برزت بشكل كبير بسبب عدم وجود وريث مباشر، الأمر الذي سمح لإدوارد بالتدخل لفرض هيمنته على إسكتلندا التي عدَّها مصدر قلق للعرش الإنكليزي، وفي الوقت نفسه عدَّ بعض النبلاء الطامعين في العرش فرصةً لتعزيز أراضيهم من خلال أداء القسم لإدوارد، وفي المقابل ظهور شخصيات وطنية معارضة أمثال ويليام والاس.

ارتبط اسم والاس بالمقاومة الإسكتلندية ضد الطغيان الإنكليزي، وشكل اسمه لحظةً مفصليةً في تاريخ الصراع الإنكليزي- الإسكتلندي، وشكل رمزًا مبكرًا للمقاومة الوطنية، ورغم أن نشاطه العسكري لم يدُم طويلًا، فإنه شهد العديد من التحولات، منها انتصاراته المبكرة في سترلينغ والهزيمة في فالكيرك، لكن تأثيره السياسي والرمزي كان بالغ الأهمية، إذ خلد في إحياء روح المقاومة بين الإسكتلنديين وترسيخ فكرة الوطن الحر. أثبتت معركة جسر ستيرلنيغ أنه ليس مجرد ثائر عادي، إذ رسم خطةً كسرت شوكة الجيش الإنكليزي وغطرسته، وتعرضوا إلى هزيمة كبرى ولأول مرة لهم في الأراضي الإسكتلندية.

أظهرت الأحداث التي أعقبت هزيمته في فالكيرك 1298م أن دوره لم ينتهِ عسكريًّا فحسب، بل استمر رمزًا للمقاومة الشعبية الوطنية، وسافر إلى فرنسا لطلب الدعم لقضيته محاولًا تحرير الملك الأسير جون باليول، مما يظهر أنه شخص كان يمتلك حسًّا دبلوماسيًّا وليس عسكريًّا فقط.

حاول الجيش الإنكليزي في أكثر من مناسبة اعتقال والاس، لكنهم لم ينجحوا أبدًا، وبفعل الخيانة تم القبض عليه، وجُسدت في محاكمته في عام 1305م محاولة للسلطة الإنكليزية لإضفاء الشرعية القانونية للقضاء على أحد رموز الحركة الوطنية الإسكتلندية، ورغم التعذيب الذي مارسته السلطات الإنكليزية في محاكمته فإنه لم يرضخ إلى إرادتهم، ولم يعترف بسلطان إدوارد عليه، مما يدل على أن مبادئه غير قابلة للتفاوض، وأن حركته لم تكن مجرد انتفاضة عابرة، بل هي تخليد لكل الرجال الباحثين عن الحرية والثأر بوجه الظلم والطغيان.

ورغم محاولة الإنكليز طمس شخصيته وهُويته من خلال تقطيع جسده إلى أشلاء، وعدم تناوله في بعض الأدبيات المبكرة في تاريخ إنكلترا، ومحاولة إظهاره على أنه شخصية خيالية، فإن الحقائق ظهرت في سجلات إدوارد الأول الخاصة بمحاكمته، وكذلك القصيدة الطويلة لهاري الأعمى أثبتت أنه شخصية حقيقية، وعلى هذا الأساس لم تكن أهميته كشخصية عسكرية فحسب، بل في الأثر التاريخي والمعنوي الذي تركه في مسار الحرب الإنكليزية – الإسكتلندية، ونجح نضاله في تمهيد الطريق لاستقلال إسكتلندا بقيادة روبرت دي بروس الأبن عام 1328م، وتحولت شخصية والاس إلى أحد الرموز المؤسسة لفكرة المقاومة الوطنية في التاريخ الأوربي الوسيط.

المصادر والمراجع

- Alan Macquarrie. (2004). *Medieval Scotland, Kingship and Nation.* Edinburgh: The History Press.
- Alexander Falconer Murison. (2003). *Wililam Wallace Guardian of Scotland.* New York: Dover Publications.
- Andrew Fisher. (1986). *William Wallace.* Edinburgh: John Donald Publishers LTD.
- Andy King. (2005). *Scaling The Ladder: The rise and Rise of The Grays of Heaton (1296-1415), In Christian D. Liddy & Richard H. Britnell North- East Englnd In The Later Middle Ages.* Woodbridge: Boydell Press.
- Barrow G.W.S. (2003). *The Kingdom of the Scots: Government, Church and Society from the Eleventh to the Fourteenth Century.* Edinburgh: Edinburgh University Press.
- Blind Harry. (1968). *The Actes and Deidis of the Illustre and Vallyeant Campioun Schir William Wallace, edited by Matthew P. Mc Diarmid.* Edinburgh: Scottish Text Society.
- David Crouch. (2005). *The Birth of Nobility: Constructing Aristocracy in England and France 900–1300.* London: Routledge.
- David Nicolle. (2002). *Falkirk 1298: Edward I Crushes Wallace.* Oxford: Osprey Publishing.
- David R. Ross. (2001). *On the Trail of William Wallace.* Edinburgh: Luath Press Ltd.
- E. L. G. Stones. (1965). *Andrew de Moray and William Wallace, Letter to the Merchants of Lübeck and Hamburg (1297), in: E. L. G. Stones (ed.), Anglo-Scottish Relations 1174–1328: Some Selected Documents.* Oxford: Oxford University Press.
- Encyclopedia britannica. (بلا تاريخ). *https://www.britannica.com/biography/William-Wallace* .
- G. W. S. Barrow. (2005). *Robert Bruce and the Community of the Realm of Scotland.* Edinburgh: Edinburgh University Press.

- H.E.Marshall. (1906). *Scotland's Story.* Edinburgh: Thomas Nelson Paris Melbourne.
- Herbert Maxwell (ed.). (1913). *The Chronicle of Lanercost 1272–1346,.* Glasgow: James Maclehose and Sons.
- *https://www.rogerebert.com/reviews/braveheart-1995*. (بلا تاريخ).
- James Mackay. (1995). *William Wallace Brave Heart.* Edinburgh: Mainstream publishing.
- Magnus Magnusson. (2000). *Scotland: The Story of a Nation.* New York: Grove Press.
- Margaret Macarthur. (1874). *History of Scotland.* New York: HENRY HOLT AND COMPANY.
- Michael Brown. (2004). *The Wars of Scotland 1214- 1371.* Edinburgh : Edinburgh University Press.
- Michael Prestwich. (1997). *Edward I.* London: Yale University Press.
- Peter Hume Brown. (1908). *A Short History of Scotland.* Edinburgh: Oliver and Boyd.
- عباس يحيى عبد القادر. (2016). إدوارد الأول وأثره السياسي في إنكلترا 1239–1307، أطروحة دكتوراه غير منشورة. ديالى: جامعة ديالى كلية التربية الأساسية.
- هشام علي الحسيني. (2017). ، المشكلة الإسكتلندية في السياسة الإنكليزية (إدوارد الأول ووليام والاس). حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الحادي عشر، العدد الأول.